وصية الحافظ السيد محمد عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني

(المتوفى سنة ١٣٨٢هـ)

للمحدث الشيخ السيد
محمد المنتصر بالله بن محمد الزمزمي الكتاني

(المتوفى سنة ١٤١٩هـ)

تحقيق
فؤاد بن الحسين بولفاف السوسي

[النص المحقَّق]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وآله، وصحابته.

هذه وَصيَّة طلبها مني مَحَلُّ الوَلد الأَدِيب، البَارِعُ الأَرِيب، شُعْلةُ الذَّكَاء والفِطْنَة، سَلِيلُ المَجْد، سيدي «مُحَمد المُنْتَصِر»؛ نجْلُ الفقيه، الماجد الأصِيل، وارث المَجْد كابرًا عن كَابر؛ «أبي عبد الله سيدي مُحَمَّد الزَّمْزَمِي الكَتَّانِي الحَسَنِي»[١].

فأقول والله المستعان:

أولُ ما على المُوصَى المذكور: الاهتمام بتعَاطي علوم اللغة العربية، واعتبارها وسائلَ لمقصودٍ واحد، وهو: الاِسْتعانَة بِها على فهم كتاب الله، وسنة رسوله عليه السلام.

وعليه أن يَتعاطى هذه الوسائل بصفة كونها وسائل، ولا يُنْزلها مقاصد فيَنْقَطِعَ بها عن علم التفسير، والحديث، وخصوصًا سُنَّة جده الرسول الأعظم؛ ففيها الشِّفاء من جميع أدْوَاء الجهل، والدَّاءَات الحسِّية والمعنوية.

فمن تعاطى كلام الرسول الأعظم باعتبار أنه المصلح الأكبر، والمربِّي الأعظم، وأُقْنُوم[٢] الإسْعَاد الدِّينيّ والدنيويّ؛ وجَدَ فيه كلَّ شيء، واستفادَ منه كلَّ شيء، وتحقَّقَ أنه عليه السلام مُصْلحُ العَالَم الأكبر؛ فيكتفي بطبِّهِ عن طبِّ

---

(١) سبقت ترجمته في صفحة ١١، حاشية رقم ١.

(٢) الأقنوم ـ بضم الهمزة وسكون القاف بعدها ـ: الأصل، وجمعه: أقانيم. قال الجوهري: وأحسبها رومية.

ينظر: «الصحاح» للجوهري، مادة (قنم)، (٥/ ٢٠١٦).

الأطبَّاء، وبحكمته عن حكمة كل الحُكماء، وبفقهه عن فقه الفقهاء، وجميعِ المُشَرِّعين والمُقَوْنِنِين(١)، وبفصاحته عن بلاغة جميع البُلَغاء.

وإني لأَعْجَب كل العَجَب مِمَّن يريد أن يتدرَّب على الفَصَاحَة والطَّلاقَة، ولا يتلقى أساليب النُّطْق والتَّعبير من مُمارسة كلام أفْصَح من نطق بالضَّاد!.
ومِمَّن يريد أن يأخُذ الانْسِجام وحسن التَّوقيع من مُمَارسة كلام «الحَريريّ»(٢)، ولا يأخُذُه من مُزَاوَلَة «شِفَاءِ»(٣) «القاضي عِيَاض»؛ فإنها تُكْسِبُ البلاغة، وقوَّة الإيمان!!.

وَاعْلَم أنه لا عِلْمَ بلا عَمَل؛ فلَازِم الصَّلَوات في أوقاتها، واخْتَر لصُحبتك كما تختار عَشَاءَكَ ومَلْبَسَكَ وفِرَاشَكَ؛ فَمَعَ مَنْ تَكُنْ: بِحَالِهِ تَكُنْ!. فَاخْتَر لصُحْبَتك ومُرافقَتِك، واعْمَل بمَقَالَةِ «الشَّافِعِيّ»: «لَوْ عَلِمْتُ أنَّ شُرْبَ المَاءِ البَارِدِ يُنْقِصُ مِنْ مُرُوءَتِي مَا شَرِبْتُه!»(٤).

وابْتَعِد عن مَظَاهِر المَدَنِيَّةِ الخَلَّابَة؛ فإنَّها مُفْتِنة، وأرى أنها «جَعْجَعَةٌ وَلَا طَحِين»(٥)؛ ولكن خُذْ مِن كُلِّ شَيء أحْسَنه، واعْرف قيمة الوَقت، وزِنِ الأعْمال

---

(١) يقصد رحمه الله تعالى: أهل القانون الوضعي؛ الذين يصوغون المدونات والمواد القانونية.

(٢) هو: الإمام الأديب أبو محمد القاسم بن علي الحريري (نسبة إلى صناعة الحرير، أو بيعه)، صاحب «المقامات»، توفي سنة (٥١٦هـ).
ينظر: «معجم الأدباء» (٢/ ٢٢٠٢ ـ ٢٢٢٧)، و«سير أعلام النبلاء» (١٩/ ٤٦٠- ٤٦٥).

(٣) وتمام عنوانه: «كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ»، وقد كتب الله لهذا السفر العظيم قبولًا باهرًا بين الناس، ونشر نشرات عديدة.

(٤) جزء مقولةٍ للإمام الشافعي، رواها بتمامها: الإمام البيهقي في «مناقب الشافعي» (٢/ ١٨٧).

(٥) تمامه: «أسمع جعجعة ولا أرى طحنًا»، ومعناه: أسمع جَلَبَة ولا أرى عملًا، والجعجعة هاهنا: الصوت، وهو مثل عربي سائر، تضربه العرب للجبان يُوعِد =

والأَقْوال والحَرَكات، وانْقَطِع لِلعَمل، واطْلُبه لذاتِه ولِلَذَّاتِه لا لِلْعوارِض.

وَاعْلَم أنّي أدركت من عائلتك ممَّن كان يَدرُس العلم نحوَ العَشَرة، كانت تَجْمَعُني معهم مائدةٌ واحدة، ما خَلَّفَ أغلبُهُم من يَرِثُه!

فَاجْهَدْ أن تُكْمِلَ النَّقْص، وتُخْلِفَ الضَّائِع، وأَحْيِ المَجْدَ الفَائِت، واسْتَعِن بِرُكَيْعاتٍ في جَوْفِ اللَّيْل.

وعَظِّم السَّلَف الصَّالِح، وَأَوْفِ لَهُم من الإجْلال والإكْبار بالمِكْيال الأوْفَى، والقِسْط العظيم.

واتْرُك السِّياسة، وابْتَعد عنها؛ فإنه لا جَدْوَى لها، ولا حَاصِل، ولا طَائِل.

وَخُصَّ الزِّيَّ العَرَبِيَّ، والشِّعَار الإسْلاميّ بِالتَّخَصُّصِ والتَّخْصِيص.

واجْعَل بعضَ الأذكار النَّبويَّة خَيْرَ جَليسٍ وأَنِيس.

وآثِرْ من الكُتبِ كُتبَ السَّلَفِ والمُتَقدِّمين، ولا تَغُرَّكَ بَهْرَجَةَ كتب الكُتَّاب المعاصرين؛ فإنها مُفتِنَةٌ وقَاطِعَةٌ عن التَّحْصِيل في العُلوم الدِّينيَّة؛ التي هي الأَصْلُ الأَصِيل، ولا تتعاطَ من كتبهم إلا ما كان كالوسيلةِ لكُتب المتقدِّمين.

وَاعْنَ بلقاء العُلماء المُعَمَّرين، والرواة، والمُسْنِدِين، وحَصِّل أَسَانِيدهُم، وَابْحَثْ عن إجازاتهم واتِّصَالاتِهم؛ فإنَّه عِلمٌ كاد أن يُنْسى اليوم في النَّاس شَرقًا وغَربًا(١).

= ولا يُوقِع، والبخيل يَعد ولا يُنجز. وضربه الشيخ هاهنا لإفادة خواء مظاهر المدنية مما يفيد إلَّا نادرًا! وقد صدق رحمه الله. ينظر: «جمهرة الأمثال» (١/ ١٥٤)، و«المستقصى من أمثال العرب» (١/ ١٧٢).

(١) الناس في زماننا تجاه هذا العلم طرفان ووسط: فأما الطرف الأول، فطائفة ترى الاشتغال به: مضيعة للوقت، ومجلبة للحسرة، بل ترمي كل من سعى إليه بالثلب والنقص. وأما الطرف الثاني، فطائفة أقبلت عليه إقبالًا منع عنها مزاولة العلم، والعمل بمقتضاه. ولعل الوسط: الإقبال عليه بالقدر الذي لا يُبعد صاحبَه عن الاشتغال بالعلم، والعمل بمقتضاه، والسعي إلى نشره وبثِّه في الناس.

وَاعْنَ بكُتب آلِكَ وعَشِيرَتِك، خُصوصًا كتب «جَدِّك»[١]، وخُصُوصًا «السَّلْوَة»[٢]، ونحوها، ومن كُتُبِنا نحو: كتاب «نِظَام الحُكُومَة النَّبَوِيَّة»[٣]، و«فِهْرِس الفَهَارِس»[٤]. وَاقْتَنِ كتب «ابْنِ العَرَبِيّ المَعَافِرِيّ»، و«عِيَاض»، وَاعْنَ بهما؛ ففيهما البُغْيَة. و«الشِّفاءُ» كَنْزٌ ثَمِينٌ لا يُعوَّض، وليسَ في كُتب المِلَّة ما يُشبِهُه![٥].

وصَدِّقِ القَوْمَ فيما يُخْبِرون به، وَدَعْ ما لم تَفْهَم من كلامهم إلى بُلوغِك الأَشُدَّ، ولا تَثِق بفَهم الصِّبا، ولا تَقِفْ مع عَقْل الشَّباب، وتَقَدَّم أمامكَ ولا تَقْنَع؛ فالقَناعةُ مِنَ الله حِرْمَان![٦].

---

(١) جَدُّ الشيخ محمد المنتصر هو: الشيخ الإمام المحدث أبو عبد الله محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني الحسني. أخذ العلم عن أعلام من المغرب والمشرق، وله مؤلفات جليلة القدر (بلغت نحو الستين، كما ذكر الشيخ عبد الحي. وأوصلها الدكتور حمزة الكتاني إلى اثنين وثمانين، في مقدمة تحقيقه لـ «سلوة الأنفاس»)، منها: «سلوة الأنفاس»، و«نظم المتناثر في الحديث المتواتر»، و«الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة». توفي رحمه الله تعالى سنة (١٣٤٥هـ).
ينظر: «فهرس الفهارس» (١/ ٥١٥ ـ ٥١٨)، و«شجرة النور الزكية» (١/ ٦١٩ ـ ٦٢٠)، و«إتحاف المُطالع» (٢/ ٤٤٤).

(٢) تمام عنوانه: «سَلْوَة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أُقبر من العلماء والصُّلحاء بفاس».

(٣) المُسمى: «التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدنية الإسلامية في المدينة المنورة العلمية». وهو منشور عدة نشرات كما سبق في ترجمة الشيخ في مقدمة التحقيق.

(٤) تمام عنوانه: «فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات». وهو منشور بدار الغرب الإسلامي، باعتناء الدكتور إحسان عباس.

(٥) أفرد الحافظ عبد الحي الكتاني الكلام عن مكانة «كتاب الشفا»، ورواياته، ونُسَخه، وما كتبه حوله، وعناية الأمة به، في كتابه الفذ: «المدخل إلى كتاب الشفا»، ونشرته ـ أخيرًا ـ دار الحديث الكتانية، بتحقيق: الأستاذ خالد السباعي وفقه الله تعالى.

(٦) هذه من أعظم فقرات هذه الوصية النافعة، وحرِيٌّ بها أن تُحفَظ، وتُتداول؛ فإن أكثر ما عَكَّرَ صفو ساحة العلم الشرعي في زماننا: الوثوق بفهم الصبا، والعجلة، والتسرع، والله المستعان!.

وتَطَلَّبِ العِلْم من المَهْدِ إلى اللَّحْد، واعْلَم أن مَسْألةً تُزْدَاد، أو نُكتةً تُسْتفاد؛ خَيْرٌ من «الدِّجْلَة»(١) و«بَغْداد».

وخِتَام القول أني أَتَمثَّل لك:

فَأَقْلِلْ مِن لِقَاءِ النَّاسِ إلَّا ... لأَخْذِ عِلْمٍ أو إِصْلاحِ حَالِ(٢)

والبيت الذي قبله هو:

لِقَاءُ النَّاسِ لَيسَ يُفِيدُ شَيئًا ... سِوَى الهَذَيَانِ مِن قِيلٍ وقَالِ

وقول الآخر:

أَنِسْتُ بِوَحْدَتي ولَزِمْتُ بَيْتي ... فَطَابَ الأُنْسُ لِي ونَمَا السُّرورُ

فلَسْتُ بِسَائلٍ ما دُمْتُ حيًّا ... أَسَارَ الجَيْشُ أَمْ رَكِبَ الأَمِيرُ؟!(٣)

---

(١) هو: نهر الدِّجلة بالعراق.

(٢) قائل هذين البيتين هو: الإمام أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي (ت٤٨٨هـ)، صاحب «الجمع بين الصحيحين»، و«جذوة المقتبس في ذكر ولاة أندلس»، وغيرهما من التواليف البديعة.
ينظر: «الصلة» (٣/ ٨١٩)، و«معجم الأدباء» (٦/ ٢٦٠٠)، و«سير أعلام النبلاء» (١٩/ ١٢٧).
وفي هذه المصادر ـ وغيرها ـ: «لأخذ العلم»، بالألف واللام. ولعله الموافق للوزن الشعري للبيت، والله أعلم.

(٣) نَسبَ العلامة أبو علي اليوسي (ت١١٠٢هـ) هذه الأبيات في كتابه «زهر الأكم في الأمثال والحكم» للإمام أبي سليمان الخطابي (ت٣٨٨هـ) صاحب «أعلام السنن في شرح صحيح البخاري»، و«معالم السنن شرح سنن أبي داود».
وفي بداية البيت الثاني ـ فيما نسبه الشيخ اليوسي للإمام الخطابي ـ، قال: «وَلَسْتُ».
وفَوَّت الشيخ عبد الحي ـ إما قصدًا للاختصار، أو سهوًا ـ بيتًا تَوسَّط البيتين الذين تمثلهما، وهو:
وأدَّبني الزمانُ فلا أُبالي ... هُجِرتُ فلا أُزارُ ولا أَزُورُ
وقيلت نحو هذه الأبيات، ونسبت لغير الخَطَّابي رحمه الله تعالى، والله أعلم.

أَثْمَرَ الله غَرْسَكُم، وَزَكَّى بالتَّقوى رُوحَكُم ونَفسَكُم.

هذه عُجَالَة مُجْتَاز[١]، وتَنَزُّه مُسْتَوْفِز[٢] عمَّن عَمل، بِقَلَم عَمِّكُم المُقصِّر، خادم الحديث: مُحمد عبد الحَيّ الكَتَّاني، خَارَ الله له ووفقه، سائلًا أن لا تَنْسوه من صالح الدعوات، قائلًا لكم: إنَّه بلسَان السَّلف والخَلَفِ ينتظر نتيجة سَفَرِكم هذا وما ترجعون به من التَّحْصيل، ولا يُريد منكم ولا يَقْنَع بأن تَرْجعوا تُحَدِّثون عن «الأَهْرَام»، و«الجِيزَة»[٣]، وأَضْوَاء «الأُزْبَكِيَّة»[٤]!.

خَاتِمًا قَولَه بِرجَائِه أن تكونوا كَمَنْ قيل فيه:

نَفْسُ عِصَامٍ سَوَّدَتْ عِصَامَا ... وعَلَّمَتْهُ الكَرَّ والإقْدَامَا[٥]

٢ رَبيع الثَّاني
عام ١٣٥٣ هجرية، بِفَاس

---

(١) المجتاز: السَّالك، ومُجتاب الطريق، ومُجيزه، والذي يحب النجاة.
ينظر: «القاموس المحيط»، مادة (جوز)، (ص٣١٠). ويقصد أن هذه رسالة مختصرة مستعجلة لسالك سبيل العلم؛ الذي يود الظفر فيه، والعلا به.

(٢) المستوفز: غير المستقر.
ينظر: «معجم مقاييس اللغة»، مادة (وفز)، (ص٩٦٢).

(٣) مدينة تقع في شمال مصر.

(٤) أحدُ أعرق أحياء مدينة القاهرة بمصر.

(٥) والبيت الذي بعده:

وَصَيَّرَتْهُ مَلِكًا هُمَامَا ... حتى عَلا، وجَاوَزَ الأَقْوامَا

وهذان البيتان مما نسب للنابغة الذبياني وليسَ له، كما حرره الدكتور حمدو وطاس. وأدرجهما محمد أبو الفضل إبراهيم في قسم المنحول من شعره: (الشعر المنسوب للنابغة الذبياني مما لم يرد في الديوان). ينظر: «ديوان النابغة» الذبياني، بتحقيق حمدو طمّاس(ص ١١٤)، وبتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم(ص٢٢٦ ـ ٢٢٧ و٢٣٢).